التيارت الفكرية بتلمسان في عهد بن زيان

د. عبد العزيز فيلالي
أستاذ التاريخ الوسيط
جامعة قسنطينة

ملخص

وصفوة القول إنه على الرغم من كثرة العلماء والفقهاء لمدينة تلمسان إلا أنهم لم يصلوا إلى درجة الاجتهاد المطلق، الذي وصل إليه الأئمة الأربعة المشهورون، وإنما يمكن إدراجهم ضمن المجتهدين في إطار المذهب المالكي بحيث لم يحيدوا عن مبادئه، ولم يعملوا إلا بما يوافق مضامينه.

ABSTRACT

The Ideoligic tendencies in Tlemcen in the period of Beni Zianes

Although there were many scientistes and lawers in Tlemcen, they have not been able to reach the level of "Ijtihad" as the four Imams of Islam. But we have to be fair and classified them as "moujtahidines" in the doctrine of malikite.

Resumé

Les courants ideologiques à TLEMCEN à l'époque des Beni Zianes

Malgré l'abondance des savants et des magistrats à Tlemcen, aucun savant n'a pu atteindre le degré de l'ijtihad absolu, que les quatres Imams ont atteint, mais n'empêche de les classer tous dans le cadre des "Moujtahidines""Malikites"

مقدمة

حرص أهل تلمسان وعلماؤها على تمتين العلاقة مع أهل المغرب خاصة والمشرق والأندلس على وجه العموم، حيث تضاعف الإتصال، عن طريق النشاط الدبلوماسي وتبادل الرسائل الديوانية والإخوانية، وعن طريق الرحلة في طلب العلم التي أصبحت عادة محمودة عند التلمسانيين، وعن طريق الحج أيضا إلى البقاع المقدسة والتجارة، فأتيحت الفرصة بالعلم أن تتلاقح أفكارهم، وأن تتدعم الروابط الثقافية، والعلمية بينهم وبين نظرائهم في حواضر المشرق والمغرب والأندلس.

فاتخذت بذلك الثقافة في تلمسان برافدين هامين، رافد المشرق ورافد الأندلس، فضلا عن الجهاز العلمي المحلي، نتج عن ظهور عدة تيارات فكرية بالعاصمة الزيانية.

أولا : تيار الإجتهاد :

- التيارات الفكرية بتلمسان

حملت الدعوة الموحدية في طياتها، بذور نهضة إصلاحية دينية ومذهبية،في ربوع المغرب الإسلامي، أرسى قواعدها الموحدون وثبتوا دعائمها بتشجيعهم، للبحث والدرس والتحصيل في مجال العلوم النقلية والعقلية، ودراسة المسائل الفقهية والعقدية، وفرضوا مبادئهم التوحيدية على أهل المغرب بالترغيب حينا وبالترهيب أحيانا (1)، وتحويلهم عن المذهب المالكي وعلم الفروع التي كانت سائدة في عهد المرابطين، وأمروا بالإجتهاد والعودة إلى الأصول، من كتاب وسنة ونبذ الفروع (2)، فأراد الموحدون بذلك كسر الحصار الذي ضربه

المرابطون وفقهاؤهم على الفكر المغربي فترة من الزمن، وتصدوا لعلماء المالكية السلفية، ووصفوهم بالتقليد والجمود والجهل والطغيان والتجسم والكفر (3).

بذل الموحدون جهودا كبيرة في سبيل توحيد بلاد المغرب والأندلس سياسيا وعقيديا، بنشر دعوتهم في المدن والقرى والبوادي، وبين مختلف طبقات المجتمع المغربي وفئاته، مستندين إلى القرآن الكريم والسنة النبوية، ودعوتهما الناس إلى التفكير المنطقي والإستدلال العقلي (4)، فأدى هذا الأسلوب الجديد إلى جدل كبير، بين فقهاء المالكية الممثلين للتيار السلفي، وبين غيرهم من أتباع الموحدين وأنصارهم، الذين يفضلون مذهب الأشاعرة، في مسائل عديدة، خاصة فيما يتعلق باستخدام الحجج العقلية والتأويل والمنطق، الذي يتفق مع التفسير التقليدي السائد عند الفقهاء المرابطين المحافظين (5)، الذين يقولون برأي مالك والسلف، والإعتقاد بظاهر النصوص والصفات (6).

قام الموحدون بتدريس تآليف الأشاعرة، في حلقات الدرس والتحصيل بين الطلاب، وترويج كتب الإمام الجويني (ت478هـ/1085) ونشر أفكاره، كذلك سمحوا بتدريس مصنفات حجة الإسلام الغزالي (505 هـ/ 1111 م) التي كانت محظورة في عهد أسلافهم المرابطين(7).

فقد تضمنت عقيدة الموحدين آراء اقتبسوها من بعض المذاهب التي سادت بلاد المغرب والمشرق والأندلس، ولا سيما منها مذهب المعتزلة والسنة والأشاعرة ومذهب ابن حزم الظاهري (8) وتبنوا نظريات الشيعة في الإمامة(9)

والمهدوية (10) والعصمة (11) فكان مذبهم مذهبا عقديا مبتكرا، مستمدا أصوله من المذاهب الآنفة الذكر.

وقد حاول الموحدون الضغط على فقهاء تلمسان، كغيرهم من فقهاء المغرب وإرغامهم على اعتناق أفكارهم الجديدة، والتخلي عن المذهب المالكي، لكن هذه الوسائل لم تزد فقهاء تلمسان خاصة، منهم سلفية الإمام مالك إلا عنادا وتصلبا في الموقف (12)، بالرغم مما أصابهم من محن وأذى، وفي هذا الشأن يقول عبد الله كنون : "والذي نريد أن نسجله هنا هو أن المذهب المالكي، لم ينهزم مطلقا أمام الدعوة إلى الإجتهاد، التي كان الموحدون يتزعمونها، ولا أمام المذهب الظاهري، الذي عرف نشاطا كبيرا في هذا العصر" (13).

فقد أظهر فقهاء المالكية مقاومة شديدة، ونوايا عدائية للموحدين وخير دليل على ذلك، حركة القاضي عياض ضد عبد المؤمن بن علي(14)، ونتيجة لهذا الصراع الفكري، أنتعشت الحركة الفكرية، ثم نضجت وانتشرت في الحواضر المغربية والأندلسية، وازدهرت العلوم الدينية ازدهارا كبيرا، وكثر المشتغلون بها، لأنها توفر الوظائف الرفيعة في الدولة (15)، فضلا عن المكانة الإجتماعية التي يحظى بها الفقيه، عند السلاطين وعند مختلف فئات المجتمع، فتقدمت دراسة الفقه تقدما ملحوظا، ونبغ في هذه العلوم عدد كبير من أهل تلمسان تركوا لنا مؤلفات، ومصنفات، ومجاميع، ومختصرات، وبرامج عديدة (16).

- التيارات الفكرية في ظل بني زيان :

لما ظهر بنو زيان بتلمسان، دعوا للحركة الفكرية، التي تركها الموحدون،

وساروا على دربهم في بداية الأمر، ثم أخذوا يتميزون عنهم بسياسة ثقافية، تتعلق بالمسائل المذهبية والعقيدة، وأظهروا مرونة كبيرة تجاه فقهاء المالكية وعلم الفروع (17).

فأمروا بتدريس كتب المذهب المالكي، إلى جانب العلم النظري للأصول (القرآن والسنة)، وكتب التوحيد لابن تومرت (تـ524هـ/1230) في بداية عهدهم، وأصبحت بذلك المدرسة الرسمية والمساجد والزوايا بمدينة تلمسان، تعطي المكانة الأولى، لتدريس الفقه طبقا للمذهب المالكي (18) واستجابة لمطالب الفقهاء ونضالهم الطويل في عهد الموحدين، وهي المرحلة المعروفة بمرحلة الانتقال مابين مبادئ الموحدين في التوحيد والعقيدة، وبين العودة إلى المذهب المالكي، الذي يعتبر مذهب الأغلبية في المدينة.

فبعد أن كانت الدولة في نظر الفقهاء والرعية، تقاوم هذا المذهب أصبحت تحتضنه، وتؤيد فقهاءه، وتحثهم على تدريس كتاب " الموطأ" للإمام مالك (تـ 179 هـ/745) والمدونة للإمام سحنون (تـ 240 هـ/854) فكان لهذا الموقف الرسمي، أثره البالغ في نهضة الفقه المالكي بتلمسان (19) وبالتالي أخذ الناس في هذه المدينة كغيرهم من المغاربة يتخلون تدريجيا عن الأفكار الموحدية في المذهب والمعتقدات، وقضى بذلك بنوزيان على خرافة العصمة والمهدوية والإمامية، ونقحت في عهودهم العقيدة الأشعرية مما شابها من أفكار مقتبسة من المعتزلة والشيعة (20).

وأصبح بذلك المذهب المالكي، هو المذهب الرسمي في المغرب الأوسط منذ النصف الأول من القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي. (21) فصادف

هذا الإجراء والتحويل ارتياحا كبيرا لدى الفقهاء، خاصة الأواسط المالكية المغربية عامة وتغنى بذلك الشعراء فقال مالك بن المرحل (22) في هذه المناسبة : (الرمل)

مذهبي تقبل خذ مذهب سيدي ماذا ترى من مذهبي ؟
لا تخالف مالكا في رأيه فيه يأخذ أهل المغرب (23)

وقال أيضا : (الطويل)

وما أنا إلا عالم كل عالم ففي الشعر حسان وفي الفقه مالك(24)

وأعاد بالتالي بنو زيان، للمجتمع التلمساني خاصة، ولأهل المغرب الأوسط عامة، مذهبهم الرسمي، وعملوا على تدعيمه وتوطيده، فلم يجدوا صعوبة في ذلك لأن التلمسانيين، كانوا قد اختاروا هذا المذهب منذ زمن بعيد، قبل ظهور المرابطين، وإقامة دولتهم، فانسجموا مع مقتضياته، وتكيفوا مع متطلباته، لأسباب اجتماعية وطبائع أهل المغرب في حب البساطة، وعدم التعقيد من جهة، ولطبيعة المذهب في حد ذاته من جهة ثانية، فأصبح مذهب الأغلبية بدون منازع.

والظاهر أن المذاهب الأخرى، لم تكن لها صدى في أوساط المجتمع التلمساني، ولا سيما المذهب الشيعي، ويؤكد ذلك العلاّمة ابن خلدون بأنه عندما أراد القائد إبراهيم الأبلي، والد العامل محمد الأبلي التوجه إلى البقاع المقدسة لأداء فريضة الحج والهروب من خدمة بني مرين، اختفى فترة من الزمن بالعباد رفقة الفقراء (المتصوف) فوجد بعض الشيعة قدموا من كربلاء يريدون نشر مذهبهم في هذه الربوع، وفي هذا الصدد يقول : "خرج قاصدا الحج وانتهى إلى رباط العباد مختفيا، في صحبة الفقراء، فوجد هناك رئيسا من أهل كربلاء

من بني الحسين جاء إلى الغرب يروم إقامة دعوتهم فيه" (25).

وكذلك ظهرت تيارات فكرية بمدينة تلمسان كتيار الإجتهاد والتصوف والسلفي، وظل المذهب الأشعري، من حيث العقيدة سائدا يرعاه سلاطين بني زيان، ويدين به أغلب فقهاء تلمسان.

- تيار الإجتهاد بتلمسان :

برز بعض الفقهاء بمدينة تلمسان، درسوا في مدارس عديدة وتتلمذوا على كبار شيوخ الحواضر المغربية، والأندلسية والمشرقية، حتى صاروا أئمة زمانهم، استخدموا نهج الإجتهاد (26) في مسائل فقهية، وهي المواضيع التي تكون غير واضحة أو المسائل المختلف فيها، والتي لم تكن مفصلة في كتب الفروع (27)، فيعودون إلى الأصول ويشرحونها شرحا يتناسب مع تشريع المذهب ويتطابق معه، ثم يقيسون ويرجحون، خلافا لما كان في عهد فقهاء الدولة المرابطية، التقليديين، الذين كانوا يعتمدون على اجتهاد السابقين، دون الرجوع إلى الأصول والبحث فيه (28)..

وعلى الرغم مما أنجبته مدينة تلمسان في العهد الزياني، من أئمة أعلام كثيرين في الفقه فإنهم لم يصلوا إلى درجة الإجتهاد المطلق، التي وصل إليها الأئمة الأربعة المشهورون، وإنما يمكن تصنيفهم ضمن المجتهدين، في إطار المذهب المالكي، لا يخرجون عن مبادئه، إلا بما يوافق مضامينه (29).

ثانيا : عينات عن المجتهدين :

وقد مثل هذا الإتجاه العديد من الفقهاء بتلمسان كالعالمين الفقيهين الأخوين ابني الإمام، أبي زيد عبد الرحمن (ت 743/1343) وأبي موسى

عيسى (ت 750هـ/1349) اللذين عملا على تنقيح بعض مسائل الفقه، من خلال الأصول، وتوضيح ما جاء غامضا فيه دون تعصب إلى المذهب بالرجوع إلى أعلى الأسانيد والأصول، وقد ناظرا شيخ الإسلام رائد السلفية، الذي عاصرهما وهو تقي الدين أحمد بن تيمية (728هـ/1328)، وتفوقا عليه في بعض المسائل، فاحدثا له مضايقات، فكان ذلك من أسباب محنته(30) فأنشد لنفسه قائلا : (البسيط).

محصل في أصول الدين حاصله من بعد تحصيله علم بلا دين
أصل الضلالة الإفك المبين فما في فأكثره وحي الشياطين (31)

وقال عنهما جلال الدين القزويني "بمثلهما يفخر المغرب" (32)

فكان لهما صيت ببلاد المشرق والمغرب (33).

ونحا منحاهما الإمام، أبو عبد الله محمد المقري التلمساني (ت759هـ/1357)، الذي يعد من أبرز العلماء، الذين أنجبتهم المدرسة المالكية في تلمسان والمغرب، خلال القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي، له تصانيف عديدة في الفقه والتصوف (34)، قارن بين فروع المذاهب الأربعة، وناقش من سبقه في مقاصد الشريعة الإسلامية، وقواعدها الفقهية وفروق أحكامها (35)، وربط الفروع بقواعدها الشرعية، وعلى بيان ما نشأ من الخلاف المذهبي، في أصل هذه القواعد، وقد اعترض على بعض آراء شهاب الدين القرافي (36)، فابتكر بذلك طريقة جديدة في خدمة الفقه وهي خلاصة عمله النقدي لأقوال الفقهاء ونظرائهم إلى بعض المسائل فكانت له

مواقف اجتهادية عديدة وآراء خاصة في حدود المذهب المالكي، صحح فيه الكثير أقوال الفقهاء (37)، وكانت له مشاركة في الجدل والمنطق(38) وصفه الشريف التلمساني بقوله، "قد جاز بذهنه الثاقب الراجح في تحقيق الدلائل الصعبة، وجاز برأيه الصائب الناجح في تحصيل المسائل موردا عذبا حتى صار يفصل في مضيق المناظرات، بين أربابها، ويلي كشف حجابها"(39).

فقد أصبحت المدرسة الأشعرية الكلامية منهجا، لأتباع المذهب المالكي الذين صارت لهم مرونة من غير تسامح، تجاه المذاهب الأخرى، فآكتسبوا بذلك أدوات الجدل، والمساجلات والمناظرات، للدفاع عن موقفهم ومذهبهم، خاصة في مواجهة خصومهم، ولا سيما المتصوفة الباطنية، ومحاربة البدع بجميع أنواعها (40).

ولعل تفصيلهم لمذهب مالك يعود إلى ما يحتويه من آراء وأفكار ونصوص أصلية من الكتاب والسنة من جهة، ولإعادة الإعتبار للفقهاء المالكية الذين تعرضوا إلى المحن في العهد الموحدي من جهة ثانية، وللتوافق القائم بينه وبين عقليتهم ومزاجهم، لاعتماد المذهب على النص والتثبت في النقل، والإبتعاد عن المبالغة في استعمال الفلسفة والمنطق والقياس (41).

وكذلك فضل أهل المغرب على المذهب المالكي، لأن سلوك المالكيين من القضاة والفقهاء بين الجماهير، كان سلوكا، يكاد يكون مثاليا، سواء فيما يتعلق بعلاقاتهم بالله أو بالأمراء والسلاطين، أو بالناس جميعا، فعلاقتهم بالله تمثلت في التقوى والورع وحسن السيرة، واجتناب مغريات الدنيا وزخرف الحياة (42).

أما صلتهم بالسلاطين والأمراء، فلم تكن قائمة على التودد والتملق لهم، واسترضائهم أو التمسح بأطرافهم، وطلب رضاهم، بل كان أغلبهم لا يتسامح معهم في الرأي والفتيا ولا يطوعون الدين لرغباتهم، ولا يخشون في الله لومة لائم، وأما علاقتهم بالناس فكانت قائمة على التواضع، غير مترفعين على العامة، مهتمين بهم يبحثون معهم عن الحلول العلمية لقضاياهم الفقهية، ويتوسطون بينهم وبين الحاكم للتخفيف عنهم والدفاع عن حقوقهم (43).

وهكذا نرى بأن المذهب المالكي، قد تطور نحو المرونة والإنتشار، ولم يعد أصحابه متصلبين جامدين، لأنهم استفادوا من المحنة الطويلة التي تعرضوا لها خلال القرون السالفة، فطرحوا قضايا مذهبهم وأفكارهم من خلال مقاييس جديدة، تحاول التوفيق بين النظرية الشرعية وبين الواقع وتطوره (44).

ويبدو أن نزعة الإجتهاد، خلال القرنين الثامن والتاسع الهجري الرابع والخامس عشر الميلاديين، بمدينة تلمسان، كغيرها من حواضر المغرب، لم تتعد نطاق المذهب المالكي للإعتبارات السالفة الذكر، وتخضع لأفكاره ومقاييسه، ولم يكن من السهل على الفقهاء بلوغ درجة الإجتهاد المطلق والتحرر من أصول المذهب وفروعه، ولعل هناك من تصدى لهذه النزعة وعارضها، ووقف ضد أصحاب استعمال الرأي، وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون : "ومدعي الإجتهاد لهذا العهد مردود على عقبه مهجور تقليده"(45).

وقد ظل بعض الفقهاء المحافظين على الفروع يعتمدون على النقل الحرفي لآراء السابقين، وهم الذين انتقدهم المقري الجد بقوله : "ولا يجوز التعصب إلى المذهب بالإنتصاب للإنتصار" (46).

وندد بالتقليد والتعصب، وتصدى لبعض المواقف التقليدية المتزمتة، التي سادت في عصره، وهي ظاهرة الجنوح إلى الأقوال المنقولة، والتقوى بما أفتى به السابقون الأولون، وفي ذلك يقول : "إعلم أن التقليد هو المعصية التي هي كالطبع لهذا النوع، لأنه غلب عليه حب الخيال والوهم، وقل فيه طاعة العقل والفهم" (47) .

وقد انتقد كل من محمد بن إبراهيم الآبلي العبدري التلمساني، والإمام أبي عبد الله المقري، كثرة التأليف المختصرة، في عهدهما، وكذلك الإتجاه السائد في بناء المدارس، لأنهما يريان بأن هذه الظاهرة، يمكنها أن تفسد التعليم، وتؤثر على التحصيل والجدير بالذكر، أن ظاهرة انتشار المختصرات والمواجز ظهرت في بلاد المشرق والمغرب، وتميز القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي، بكثرة المؤلفات في الفقهيات وغيرها، والتزم الفقهاء بالإختصار وتوسعوا في تصانيف المتون والحواشي والمختصرات التي يحفظها الطالب عن ظهر قلب من الإيجاز ما يخل بالمعاني ويزيدها غموضا (48).

واستنكر الإمام المقري كثرة النقل من الكتب المختصرة، لمؤلفين غير معروفين، ونقل الفتاوي من كتب الدين، لا يميزون بين كتب المسخوطين وكتب المرضيين (49)، وفي هذا الصدد يقول : "كل أهل هذه المائة عن حال، من قبلهم من حفظ المختصرات، وشق الشروح والأصول الكبار، فاقتصروا على حفظ حظه، وأفنوا أعمارهم في حل لغوزه، وفهم رموزه، ولم يصلوا إلى رد ما فيه إلى أصوله بالتصحيح، فضلا عن معرفة الضعيف من ذلك والصحيح، بل هو حل مقفل وفهم أمر مجمل، ومطالعة وتقييدات زعموا أنها تستنهض فبينما نحن نستكبر العدول، عن كتب الأئمة إلى كتب الشيوخ، أتيحت لنا تقييدات

بلجهلة بل مسودات المسوخ" (50).

ويتضح من خلال حديث المقري أنه يستحيل فهم هذه المختصرات إلا إذا توفرت لها شروح وحواشي، وهوامش، فقد توفرت هذه الكتب بكثرة وهي متفاوتة القيمة، وصارت تعد خطرا بالنسبة للفقه، لإبتعادها عن التعمق في البحث والإجتهاد من جهة ولضعف الروح النقدية من جهة ثانية إلى أن زالت نهائيا تقريبا في القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي (51).

أما عن بناء المدارس، فإن المقرى يرى بأنها تجذب الطلبة بكثرة، نتيجة إغراءات المنح والجرايات، التي كانت تقدم لهم من قبل الدولة والأوقاف " فيقبل بهم على من يعينه أهل الرياسة للأجراء والإقراء منهم من يرضى لنفسه الدخول في حكمهم، ويصرفهم عن أهل العلم حقيقة الذين لا يدعون إلى ذلك، وإن دعوا لم يجيبوا، وإن أجابوا لم يوفروا لهم بما يطلبون من غيرهم " (52) لأن نظام المدارس تصرفهم عن الرحلة في طلب العلم والسعي في طلبه للإستفادة من كبار العلماء في المشرق والمغرب ويرى بأن إشراف الدولة على هذه المدارس يجعل الدارسين يتقيدون بالإتجاه العام والرسمي لها، ولا يمكنهم الحياد عن ذلك.

ومن المجتهدين أيضا العالم الفقيه أبو عبد الله الشريف الحسني التلمساني (771/1369)، الذي كان يلقى دروسا أمام السلطان أبي عنان المريني وحاشيته وعلمائه، فكان يبهر الحاضرين بعلمه الغزير في كل فن قام بتدريسه وكذلك في الإشارات الصوفية، يقول عنه صاحب البستان : "آخر الأئمة المجتهدين الراسخين ... فحيت به السنة وماتت به البدعة" (53)، يعدّ

من جمهور الفقهاء وعامة العلماء الذين اكتملت لهم آلات الإجتهاد، وقال عنه الخطيب ابن مرزوق: "فقد بلغ درجة الإجتهاد" (54)، درس التصوف وتلاخيص أرسطو لابن رشد والحساب والهندسة والهيئة، والفرائض بالإضافة إلى الفقه واللغة العربية وسائر علوم الشريعة والتنجيم والموسيقى والفلاحة، وغيرها من العلوم النقلية والعقلية (55)، حتى صار شيخها، يتولى إدارة المدرسة اليعقوبية في عهد السلطان أبي حمو موسى الثاني.

الخاتمة

ومن المجتهدين في القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي، الشيخ الإمام بن سعيد بن محمد العقباني (837 هـ/1433)، الذي تتلمذ على والده رئيس العقلاء أبي عثمان سعيد (ت 811 هـ / 1408م) وصفه الفقهاء بالحافظ القدوة المجتهد، العارف بالعلوم العقلية والنقلية، وصل إلى درجة الإجتهاد، كانت له اختيارات خارجة عن المذهب، نازعه فيها بعض فقهاء تلمسان والمغرب.

فقد أفاد بعلمه الغزير، جهابذة النقاد وأمتع مسامعهم بدروسه ومجالسه، قرأ عليه كثير من طلاب تلمسان ودرس مختصر المدونة لابن أبي زيد، ومختصر خليل، وحكم ابن عطا الله والحوفي والمناسخات من شرح والده، ومختصره في أصول الدين (56).

ومنهم أحمد بن محمد بن أحد بن محمد بن مرزوق الشهير بالحفيد (ت 842 هـ / 1438)، الذي يعد من أكبر فقهاء المرازقة، أخذ من مختلف العلوم، فطار له صيت في ربوع المغرب، حتى أصبح يلقب برئيس علماء المغرب بدون منازع في عهده (57)، بلغ درجة كبيرة من الإجتهاد في الفقه والعقيدة، وملك ناصية اللغة والبيان وألم بالتصوف وسلك مسلكه (58) حارب البدع وتصدى لمختلف أنواعها (59)، يعد آية في تحقيق العلوم، واسع الإطلاع على المنقول مفرطا فيه، مالكا للفقه وفروعه، جمع بين الشريعة والحقيقة على أصح طريقة (60)، لبس خرقة التصوف من أبيه وعمه (61) اجتهد في إطار المذهب المالكي (62)، وتميز بعقيدة أهل التوحيد البعيدة

عن ظلمة التقليد، وقد نحا منحاه الإمام الفقيه محمد بن يوسف السنوسي، في عقيدته الصغرى (63)، بحيث جمع بين العلوم الظاهرة، والعلوم الباطنة، وزاد على فقهاء عصره، معرفة وحل المسائل المعقدة في التوحيد، فباطنه حقائق التوحيد وظاهره زهد وتجريد" حسب ابن مريم (64).

وصفوة القول إنه على الرغم من كثرة العلماء والفقهاء لمدينة تلمسان إلا أنهم لم يصلوا إلى درجة الاجتهاد المطلق، الذي وصل إليه الأئمة الأربعة المشهورون، وإنما يمكن إدراجهم ضمن المجتهدين في إطار المذهب المالكي بحيث لم يحيدوا عن مبادئه، ولم يعملوا إلا بما يوافق مضامينه.

الهوامش

1- البيدق : أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين نشره بروفنسال 1928 ص 79 أزمق محمد البشير قائد معركة نحو 27 ألف نفس من الموحدين قبل خوض المعركة وأطاح عبد المؤمن بن علي ، خليفة ابن تومرت ، برؤوس ما يزيد عن 33 ألف نفس من المشكوك في إخلاصهم للدعوة الموحدية المهدوية ، أنظر ابن خلكان وفيات الأعيان ،جـ 4 ص 143 عبد الله علي علام : الدعوة الموحدية بالمغرب، ص 222، محمود إسماعيل ، فكرة التاريخ ص 73 .

2- عبد الواحد المراكشي : المعجب ، ص 279 ، ابن مرزوق : المسند ، ص 60 حمل الخليفة المنصور على علماء المالكية ، حملة شديدة ، وأمر بإحراق كتب المذهب بعد أخذ ما فيها من حديث شريف وقرآن كريم ، كما قام بإحراق أعظم الكتب المالكية منها المدونة وكتاب ابن يونس ونوادر أبي زيد مختصره ، وكتاب التهذيب البرادعي ، وراضمة بن حبيب ، وكان يؤتي بالإحمال منها ، فتوضع وتضرم فيها النار : أنظر عبد الواحد المراكشي : المعجب ص 279 - ابن تومرت أعز ما يطلب ص245.

3- عبد الواحد المراكشي : المصدر السابق ، ص 279 - عبد الله علي علام : الدولة الموحدية بالمغرب ، دار المعارف بمصر ، ص 62 .

4- ابن أبي زرع : روض القرطاس ، ص 122 - 124 يعلي صالح أحمد وآخرون تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ، ص 176 .

5- ابن خلدون العبر ، جـ 6 ص 226 ، فرض ابن تومرت عقائد المطلق على الخواص والعوام ، من المجتمع المغربي ، مناهج التأويل ، الذي يتعارض مع للتفسير الحرفي التقليدي في أمور التوحيد ، وضرورة استخدام المنطق والبرهان ، دون أن يراعوا مدارك العامة ، التي كانت عاجزة عن فهم هذا الإصلاح ، لأن العقائد التقليدية ظلت راسخة في عقول المغاربة وقلوبهم ، وأن التصورات الجديدة لاتتلاءم مع ميولهم وأذواقهم ومداركهم ، إنظر الشهر ستاني : الملل والنحل القاهرة 1317 هـ جـ 1 ص118/119 الفريديل : المرجع السابق ص 284 - 287 .

6- تدور عقيدة الموحدين حول محورين متعارضين : الأول : دعا الموحدون إلى استخدام العقل وأعماله لكسر الجمود المرابطي وإخراج الناس من الجهل الذي ضرب عليهم أيام دولة المرابطين الثاني : تشبث الموحدون بمزيج من النظريات السنية والشيعية التي تتنافى واستخدام العقل كالمهدية والعصمة وغيرها : أنظر حسن جلاب : الدولة الموحدية أثر العقيدة في الأدب منشورات الجامعة (ط2) الدار البيضاء مارس 1985 ص 26.

7- عبد الكريم الفكون : منشور الهداية ، تحقيق ابو القاسم سعد الله ، دار الغرب الإسلامي ببيروت

(1989 ص 41 .

8- تمرد الخليفة إدريس بن يعقوب المنصور الموحدي (624-630هـ/1227-1232) على المهدوية والعصمية والإمامة التومرتية وصهر منها ، واعتبرها من المبادئ الداخلية على المسلمين من اليهود والنصارى ، وأخذ بالمذهب الظاهري ، وبالتالي خرج عن خط أسلافه ، بظاهر القرآن والحديث إلا عند ضرورة التأويل ، الذي تقره قواعد اللغة العربية وضرورات البلاغة ، ويرفضون الإجماع إلا إذا كان من جميع علماء الأمة ويرفضون التقليد والقياس ، أنظر : عبد الواحد المراكشي : المعجب ، ص 291-292 عبد الله علي علام : المرجع السابق ص307 - عمر فروج : المرجع السابق ص 172 - 176 .

9- تعرف الإمامة ، بأنها ركن من أركان الدين وفي هذا الصدد يقول ابن تومرت" وهي ركن من أركان الدين وعمدة من عُمد الشريعة ولا يصح قيام الحق في الدنيا إلا بها " أنظر ابن تومرت أعز ما يطلب تقديم عمار طالبي، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1985 ، ص 229 .

10- أما عن المهدوية فيقول : " أن الباطل لا يعرفه إلا المهدي ، وأن الحق لا يقوم به إلا المهدي وأن الإيمان بالمهدي واجب ، وأن من شك فيه فهو كافر " ، أنظر : ابن تومرت : أعز ما يطلب ، ص 234 .

11- وعن العصمة يقول : " أن المهدي يجب أن يكون معصوما من الكبائر والصغائر ، وأن يكون معصوما من الكذب والباطل والجور والجهل " أنظر أعز ما يطلب ، ص 229 -230 - ابن خلدون : المقدمة ، ص 348 عبد الله علي علام : المرجع السابق . ص 292 - 294 .

وظهرت طائفة تكفر كل من لم يتبع المهدي بن تومرت ، ولم نؤمن به ويفضلونه على أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وضي الله عنهما ، ويقول أصحابها بأنه من لم يقم بتعلم أثني عشر بابا من التوحيد فهو كافر ومن حلق تحت اللحية فهو مجوسي ، أنظر : الونشريسي : المعيار ، جـ 2 ص 453 .

12- عبد الواحد المراكشي : المصدر السابق ، ص 291 .

13- النبوغ المغربي جـ ص 122 - 123 - ابن شقرون : المرجع السابق ، ص35 .

14- عبد الواحد المراكشي : المصدر السابق ، ص 291 - 292 .

15- عبد الحميد حاجيات : الحياة الفكرية بالجزائر عهد بني زيان ضمن كتاب الجزائر في التاريخ ص 739 .

16- ابن الأعرج : زبدة التاريخ جـ 3 ورقة 99 - 100 ، عبد الله كنون : المرجع السابق جـ 1 ص 189 - محمد الجزائري السابق ص 341 .

17- الفريدبيل : المرجع السابق ، ص 300 .

18- نفسه ، ص 306 - 307 .

19- محمد المنوني : ورقات ، ص 195 .

20- محمد المنوني : التيارات الفكرية في المغرب المريني ، مجلة الثقافة المغربية عدد (5) ص 126 - 131 .

21- محمد القابلي : حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط ، ص 69 .

الفريدبيل : المرجع السابق ، ص 312 .

22- ولد الشاعر مالك بن المرحل سنة 604 هـ/ 1207م بمدينة مالقة ، ونزل بمدينة سبتة وهو صغير السن ، برز في ميدان الأدب على العموم ، بشعره ونثره ، كانت له أشعار كثيرة في أغراض مختلفة ، كما كانت له عداوة وخصومات مع ابن رشيق ، ساكن سبتة حينذاك فهجاه بقوله :

لكلاّب سبتة في النباح مدارك وأشدها عند النهار بين مالك

شيخ نفاني في البطالة عمره وأجل يحكيه الكلام الآفك

أحلى شمائله السباب المقرى وأعف سيرته الهجاء الماحك

أنظر : المقرى : نفح الطيب جـ 5 ص 245 - ابن شقرون : المرجع السابق من60/ 61 .

23- ابن الخطيب سحر الشعر ، مخطوط بالخزانة العامة رقم 9/ 1295 ورقة67/ 1 .

24- السيوطي المحاضرات والمحاورات مخطوط بالخزانة الملكية الرباط رقم3755 ورقة 30 .

25- التعريف بابن خلدون ص 33 - 35 .

26- حدد لنا أبو عبد الله محمد الشريف التلمساني ، درجة الإجتهاد في عهده وصنف المجتهدون إلى صنفين اثنين بقوله :" تعلمون أن المجتهدين صنفان : الأول مجتهد بإطلاق والمطلع على قواعد الشريعة المحيط بمداركها ، العرف بوجوه النظر فيها فإذا عنت له نازلة أو سئل عن مسألة ، حث عن مأخذ الحكم فيها ، فنظر في سنده وفي وجه دلالته ، على الحكم المطلوب ، ثم نظر في معارض السند وفي وجه دلالته على الحكم المطلوب وتقييده المطلق وتأويل الظاهر ، ثم الترجيح ، بعد الإحاطة بوجوه الترجيح في السند والمتن والدلالة وموافقة أصول الشريعة .

الثاني : يجتهد صاحبه في مذهب معين وهو الذي يكون مطلعا على قواعد إمام مذهبه ويحيط بأصوله التي يستند إليها ويعتمد عليها ، عارفا بوجوه النظر وبها يكون... كالمجتهد المطلق بقواعد الشريعة ... كابن القاسم وأشهب في مذهب مالك ، والمزني وابن شريح في المذهب الشافعي ، وأبي يوسف في مذهب أبي حنيفة ، ومما يوضح لك الفرق بين الصنفين أن الشافعي وابن القاسم وأشهب فرزوا جميعا على مالك وانتفعوا به أتم الإنتفاع، أما الشافعي فترقى لدرجة الإجتهاد المطلق ، فإذا سئل عن مسألة : نظر فيها نظرا مطلقا وذهب إلى ما أداه إليه اجتهاده ، وأما ابن القاسم فإذا سئل عن مسألة سمعت مالكا يقول فيها كذا ... فإن لم يكن قد سمع منه شيئا قال لم أسمع منه ولكن بلغني كذا ... وقال لي

في المسألة الفلانية كذا ومسألة هذه مثلها فهذه رتبة الإجتهاد المذهبي ، أنظر : أحمد بابا التنبكتي كفاية المحتاج جـ 2 ص339- ابن مريم : البستان ص 179 .

27- الفريدبيل : المرجع السابق ص 354 .

28- نفسه ، ص 354 .

29- أحمد بابا التنبكي كفاية المحتاج جـ 2 ص 339 .

30- أحمد بابا التنبكي : نيل الإبتهاج ، ص 166 - المقري : نفخ الطيب . جـ5 ص 216 .

31- المقرى : المصدر السابق ، جـ 5 ص 216 .

32- نفسه ، جـ 5 ص 216 .

33- نفسه ، جـ 5 ص 207 .

34- المقري نفح الطيب جـ 5 ص 284 - 285 ، وقد لاحظ أحمد ، بأن هذا الكتاب في عصره كان مفقودا بمكتبات المشرق ، وخزانته ، ولم ير منه إلا نسخة واحدة بمصر .

35- أحمد بن حميد : القواعد للمقري أبي عبد الله محمد ، أطروحة دكتوراه دولة مرقونة جامعة أم القرى ، نوقشت سنة 1404 هـ/1983 ص 80 - 84 .

أنظر أيضا : مقدمة كتاب القواعد الفقهية مخطوط بدار المكتبة الوطنية بتونس رقم14682 .

36- أبو الأجفان : المرجع السابق ، ص 103 .

37- ابن عاشور : أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي مكتبة النجاح تونس ص 84 .

38- المقري : نفخ الطيب ، جـ 5 ص 208 .

39- أنظر : الشريف التلمساني : مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول ، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف ، مكتبة الخانجي مصر 1962 ص 3 ومابعدها .

40- مشاهدي الحسن : الرحلة في العصر المريني ، د.د.ع كلية الآداب جامعة الرباط 1985 ص 15.

41- نفسه ، ص 17 - 18 .

42- ابن فرحون الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ، تحقيق محمد لأحمدي أبو النور دار الثرات للطبع والنشر القاهرة 1976 ، المقدمة ص 1 - ب .

43- نفسه ، ص ب - ج .

44- خرج المذهب المالكي في بلاد المغرب منتصرا ، بعد صراع دام أكثر من ثلاثة قرون من الزمن مع الحنفية ومع المعتزلة ضد الشيعة ثم في عهد الموحدين الذين ناصبوه العداء ، فاكتسب أصحابه مرونة في هذه الفترة في بنيته وذهنيته ، وهو الأمر الذي جعل بعض الفقهاء المغاربة يتقبلون مضامين العقيدة

الأشعرية التي أتى بها جماعة من الأشاعرة من بلاد المشرق إلى بلاد المغرب خلال القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي ، أنظر ، عبد الرحمن الجيلالي : تاريخ الجزائر العام جـ 2 ص 86 - مشاهدي الحسني : المرجع السابق ص 18 .

45- المقدمة ص 803 .

46- أحمد بابا التنبكتي : نيل الإبتهاج ، ص 247 ، أنظر الونشريسي المعيار، جـ 2 من 482 - 483 ، وقد قام الفقيه ابن مرزوق الحفيد : بتأليف كتاب استهل فيه التعريف بالإمام المقري سماه البدري في التعريف بالفقيه المقري ، بناء على منهجه ومذهبه، أنظر : المقري : نفخ الطيب جـ 5 ص 204 .

47- الونشريسي : المعيار ، جـ 2 من 483 - أبو الأجفان : المرجع السابق ، ص147 .

48- الفريدبيل : المرجع السابق ، ص 361 ، ظهرت المختصرات الفقهية في المذهب المالكي للوجود في أوائل القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي ، وتضاعف انتشارها في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي ، ثم ازداد عددها ، بشكل كبير في القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي على حساب النوعية ، ويبدو أن هذه الظاهرة قد جنت على الفقيه من حيث نموه وتطوره وازدهاره ، حتى أن بعض الباحثين ، اعتبروا ذلك تقهقرا وضعفا وانحلالا ، لأن المختصرين لم يصلوا إلى فهم التراث الفقهي، فهما جيدا ، ولم يستوعبوا مضامينه ومحتواه فجاء تصنيفهم ضربا من الألغاز، لا يمكن فهمه إلا إذا استعان الدارس بالشروح والأصول القديمة انظر :

المدارك جـ 3 ص 365 - عمر الجيدي : محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في الغرب الإسلامي ، منشورات عكاظ ، الدار البيضاء 1987 ص 131 .

49- أحمد بابا : نيل الإبتهاج ص 247 ، الونشريسي : المعيار دار الغرب الإسلامي ، بيروت 1981 جـ 2 ص 180 .

50- الونشريسي : المعيار جـ 2 ص 480 - أحمد بابا :ر نيل الإبتهاج ص247 ، البستان . ص 217 - 218 .

51- الفريدبيل : المرجع السابق ص 361 .

52- الونشريسي المعيار جـ 2 ص 419 - أحمد بابا نيل الإبتهاج ، ص246، المقري نفخ الطيب : المطبعة الأزهرية جـ 3 ص 143 .

وقد أصاب علماء ماوراء النهر الحزن عندما فوجئوا ببناء المدارس وتنظيمها ومقرراتها ، فأقاموا " نعشا للعلم وقالوا : " كان يشتغل به أرباب الهمم العلية الأنفس الزكية الذين يقصدون العلم لشرفه ، والكمال به فيأتون علماء ينتفع بهم وبعلمهم ، وإذا صار أجرة تدانى إليه إلا فساد وأرباب الكسل ، وهذا دليل

على أن موقف فقهاء تلمسان من بناء المدارس يشبه موقف المشارقة بعد عشرات من السنين : أنظر: حاجي خليفة : كشف الظنون جـ 1 ص 53 حسين أمين : المرجع السابق ص 6 .

53- ابن مريم ، ص 167 .

54- نيل الإبتهاج ، ص 256 .

55- نفسه ، ص 260 .

56- أحمد بابا التنبكتي : نيل الإبتهاج ، ص 223 .

57- ابن مريم البستاني ص 208 .

58- أحمد بابا التنبكتي : المصدر السابق ، ص 293 .

59- نفسه ، ص 294 .

60- كفاية المحتاج : جـ 2 ص 372 .

61- نفسه ، جـ 2 ص 373 .

62- أحمد بابا التنبكتي : نيل الإبتهاج ص 294 .

63- نفسه ، ص 298 .

64- البستان ، ص 239 .